

بين الهوية والغيرية مقاربة لاهوتية

الأب فاضل سيداروس اليسوعي^٥

تنطلق مقاربتنا هذه من الله، فهي إذا مقاربة «ثيولوجية». وهي تخطو خطوة إذ تُوضِّح علاقة الله بالإنسان، فهي مقاربة «إيقونومية». وهي تتناول - بناء على ما سبق - علاقة الإنسان بالإنسان، فهي مقاربة «أنثروبولوجية». هذا هو حديثنا اللاهوتي في أبعاده الثلاثة.

ونضع حديثنا هذا في إطار الشرق الأدنى، بحثًا متًا عن حديث لاهوتي يُعبّر عن وضعنا الشرقي العربي.

أولاً: «الثيولوجيا»، أي الهوية/الغيرية في الله
هوية الله

عندما كشف الله ذاته لموسى وقال له: «أنا هو من حر» (خر ٣/١٤)، فقد أوحى له بالفعل هويته الذاتية، أي صميم هويته الثيولوجية. وفي إنجيل يوحنا، عبّر يسوع عن هويته الإلهية إذ ردّد مرارًا: «أنا هو» (يو ١٨/٥). ويمكن القول بأنّ إله الإسلام هو إله الهوية المطلقة (راجع

(٥) أستاذ اللاهوت العقائدي واللاهوت الروحي في كلية العلوم الدينية بالسكاكيني - القاهرة. وله مؤلفات ومقالات عديدة نُشرت في مصر، وفي دار المشرق وفي مجلة المشرق.

سورة الإخلاص).

وليس ذلك لغفواً أو حشواً، بل هو تعبير عن تسامي الله وتعاليه المطلق، كما أنه اعتراف من لدن الإنسان بأن الله هو الله، كما أوحاه بنفسه للإنسان، لا كما يتصوره الإنسان أو يبحث عنه أو يرغب فيه.

غيرية الله

إلا أن الله يكشف جانباً آخر من ذاته وهو جانب «المحبية» (١ يو ٤/٨). ففي صميم هويته المطلقة هذه، تكمن غيريته المطلقة. فالآب هو أبو ابنه الوحيد الحبيب، والابن هو ابن أبيه، والروح هو روح الآب والابن. ويتعبّر آخر، فالآب هو انفتاح (ex-tasis) كامل على ابنه، والابن على أبيه، وتبادل الانفتاح هذا إنما هو الروح. وعليه، فيمكن تعريف هوية كلاً من الأقانيم الثلاثة بأنها غيرية، وبأنها في علاقة جذرية مطلقة. فلا هوية بدون غيرية، ولا هوية بدون علاقة غيرية. فهوية الله تطابق غيريته على نحو تام وكامل. وقد قال الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار: «في البدء كانت العلاقة».

ثانياً: «الإيقونوميا»، أي علاقة الله/الإنسان

الله أساس هوية/غيرية الإنسان

من غيرية الله - وهي مطلقة في ما بين الأقانيم الثلاثة - تفيض الخليقة - وهي بمثابة شكل آخر لغيرية الله - فيضاً غير ضروري ولكنّه نابع من محبته. فمصدر هوية/غيرية الإنسان هو الله، وهوية/غيرية الله تؤسّس هوية/غيرية الإنسان. لنحلّل ذلك عن كثب.

الإنسان خليقة الله وصورته

عندما خلق الله الإنسان قال: «لنصنع الإنسان على صورتنا كمثلنا»، ولم يقل ما قاله في سائر المخلوقات: «ليكن...» (راجع تك ١). ومعنى ذلك أن الله يؤسّس هوية الإنسان كخليقة من جهة، وغيريته

كصورة له. وهذه الغيرية تضع الإنسان في علاقة بالله يؤكدها الحوار بينهما (راجع تك ٢).

فإن الفعل العبري «بَرَى» - ومعناه «خَلَقَ» - يتضمّن فكرة «الانفصال»، أي إنّ الله، عندما يخلق الإنسان، يخلق كائناً مختلفاً عنه كلّ الاختلاف، الأمر الذي يؤكّد تسامي الله المطلق، فالإنسان مختلف كلياً عن الله. إلا أنّ غيرية الله المطلقة هذه تُكمّلها «صورةُ الله» التي تجعل هذه الغيرية وهذا الاختلاف لا وضعاً بشرياً ظاهرياً، ولا علاقةً به خارجيّة، بل تؤسّس علاقةً حميمة تجنّمه بالله. وعليه فالحديث يجرّنا إلى أن نُقرّ بأنّ الإنسان هو جوهرًا وأساسًا مختلف عن الله/ مُشابه لله، وذلك في آن واحد. ويظهر هذا الشبه/الاختلاف في كون الإنسان «ذكرًا وأنثى» (تك ١/٢٧): فما يجمعه الله في ذاته يخلقه في الإنسان منفصلاً، فهناك الذكر وهناك الأنثى، وكلاهما يكوّنان معاً صورة الله ويحقّقان معاً شبيهه.

وإذا عبّرنا عن هذه الحقيقة تعبيراً فلسفيّاً، فاستعنا بعبارة ديكرت المشهورة: «أفكرُ؛ إذا أنا موجود»، اعتبرنا الله يقول للإنسان: «أنا موجود، إذا أنت موجود»، واعتبرنا الإنسان يقول من جهته لله: «أنت موجود، إذا أنا موجود». وتعبير لاهوتيّ، يمكن القول بأنّ الله يخلق الإنسان وبأنّ الإنسان يقتبل ذاته من الله، على صورة الابن الأزليّ الذي يقتبل ذاته من الأب. وفي ما نحن بصدده، فهوية الإنسان هي أساساً وجوعاً نابغة من «آخر» - وهو الله - الذي يجسّد غيرته الأزلية المطلقة في فعل الخلق هذا.

أضف إلى ذلك أنّ الله، إذ يخلق الإنسان، يقصد أن يُدخله في علاقة شخصيّة به، ما لا يقوم به مع أية خليقة أخرى. فعندما أوحى لموسى بهويته المطلقة - «أنا هو من هو» - أوحى له غيرته العلاقيّة: «أنا إله آبائكم» (خر ٣/١٥). فبقدر ما ثبت الهوية، انبثقت الغيرية وترسّخت؛ فلا غيرية بلا هوية. وفي داخل هذه العلاقة الغيرية التأسيسية نشأ الاختيار والمهد، وهما اسمان تاريخيان آخران للعلاقة الغيرية.

ولا يختلف العهد الجديد عن العهد القديم عندما يقول بولس إننا مخلوقون «في المسيح» و«به»، وذلك في صميم علاقة الآب بالمسيح، وفي داخل علاقة الآب الذي يلد ابنه («في» المسيح) ويُشركه في الخلق («ب» المسيح). كما أننا مخلوقون «نحو» المسيح و«ل» المسيح (قول ١/١٦) في اتجاه هو بمثابة انجذاب مطلق ووجودي وإسكاتولوجي معاً.

بين البرانية والجوانية (Extériorité/Intériorité)

يركز العهد القديم على أنّ علاقة الله بالإنسان علاقة برانية - بالرغم من بعض الثورات التي تُعبّر عن الحب، حبّ الأب والأمّ أو الزوج، وذلك في إطار الاختيار والعهد - الأمر الذي يحافظ على تسامي الله المطلق. وليس من باب المصادفة أنّ الفيلسوف اليهودي المعاصر عمانوئيل لثيناس أضاف إلى عنوان كتابه المشهور الكليّة واللامحدودية عبارة: «دراسة في البرانية» (*Totalité et Infini-Essai sur l'extériorité*).

والعهد الجديد أيضاً يحترم تماماً تسامي الله هذا ويقرّ بهذه العلاقة البرانية، لأنّ الله خالق والإنسان مخلوق، بدون «ذوبان» بينهما أو «فيض» من أحدهما، بل أحدهما «مقابل» الآخر. غير أنّه يؤكّد في الآن عينه جُوانية العلاقة، وأنّ علاقة الإنسان بالله الجوانية هي في داخل العلاقة الثالوثية - وهذا هو معنى الخلق «في» و«ب» و«نحو» و«ل» الابن - ويقصد العلاقة الجوانية بينهما التي يصفها يوحنا الإنجيلي بتعبيري «السكنى» و«الشركة»: الله في الإنسان والإنسان في الله؛ ويصفها بولس الرسول بعبارته «الله كلّ شيء في كلّ شيء» (١ قور ١٥/١٨/١٩).

وعليه، فإنّ تنشأ هوية الإنسان من فعل الخلق الإلهي البراني، فهي تنمو في كونها «على صورة الله كماله»، وكذلك في فعل الاختيار والعهد، لتكتمل في جُوانية السكنى والشركة وهما ثمرة التجسّد الإلهي. وإنّ جدلية البرانية/الجوانية مستظهر وتعمّق في تحاليلنا اللاحقة.

الجُوانية والاستماع

ولقد عبّر اللاهوتيُّ نيقولا الكوزي في القرن الخامس عشر عن الجوانية هذه بقوله: «تدعومهم لسمعوك، وإذ يسمعونك يكونون». إنَّ هذا القول خير تعبير عن غنى العلاقة الجوانية، فالخلق هو في سبيل علاقة بالله الذي يدعو الإنسان إلى الوجود وإلى الدخول في علاقة شخصيّة به.

وإذا اعتمدنا على معنى لفظ «شخص» باللغة اللاتينية: Persona، وجدنا أنّه يحوي معنى السَّمع (sono). فيتميّز الشخص فعلاً بأنّه كائن يسمع ويُسمع. وقد ردّد العهد القديم دعوة الله: «سَمِعْ إِسْرَائِيل» («اسمع، يا إسرائيل»). فكانَ أساس علاقة الشعب المختار بإلهه مبنية على الاستماع، على الإصغاء إلى كلمة الله. ويقدر ما يسمع الله شعبه («سمعتُ صراخ شعبي...» (خر ٣/٧ ت)، فالعلاقة التي تربطهما هي حوار بينهما (باليونانية dia-logos) يعتمد أساساً على الكلمة (Logos)، أي الابن الأزلي المتجسّد. فقوام الشخص هو في نهاية الأمر أن يستمع إلى صوت الله وهو يدعو - في «كلمته» - الإنسان إلى الوجود وإلى العلاقة الشخصيّة به.

ومما يُبرز هذه السمة المسيحية مثلّ مضادّ في الإسلام المعاصر. فالأديب توفيق الحكيم قد تصوّر في شيخوخته، في السنة ١٩٨٢، حواراً يدور بينه وبين الله. فصادرت السلطات الأزهرية المتمثلة في الشيخ الشعراوي هذا الحوار، وقد اعتبرت أنّ الإنسان يؤسسه أن يخاطب الله في الصلاة والدعاء، وأمّا الله فهو لا يُخاطب عامّة البشر وإنما الأنبياء فقط.

الجُوانية والرؤية

ويستدعي فعل الاستماع فعل الرؤية. فالرغبة في «رؤية الله» تسكن في عمق أعماق الإنسان المخلوق على صورة الله كمثاله. فموسى والأنبياء والمرثمون ما بزحوا يلتمسون من الله أن يُريهم وجهه وألا يحجبه عنهم. وقد تحققت هذه الرغبة الدفينة عندما تجسّد الله الكلمة، وما التجسّد - في نظر الآباء الشرقيين - سوى إصلاح الخليقة. لذا هتف يوحنا الإنجيلي: «رأينا مجده، مجد الأب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق»

(يو ١٤/١). وعندما أراد بولس أن يصف مستقبل الإنسان
الإسكتولوجي، استعان بعبارة الرؤية: «حينذاك تكون رؤيتنا وجهًا
لوجه» (١ قور ١٣/١٢. راجع ١ يو ٢/٣).

وإنَّ اللفظ اليوناني Prosopon - أي «الشخص» - مكوّن من الفعل
Orao - أي «رأى» - . فمن مقوّمات الشخص الرؤية. والإنسان مدعوّ إلى
أن يرى الله الذي يراه على صورته كمثاله. فأساس الرؤية البشرية هي هذا
التبادل في الرؤية بين الله والإنسان. وليس من باب المصادفة ما يُولي
إفيناस «الوجه» من قيمة وأهميّة في فلسفته الأثروبولوجيّة.

وقد يهلّد وجهُ الله الإنسان: فعندما عاصى آدم وحوّاء وصيّة الله،
وقد تجاوزا بذلك وضعهما كمخلوقين، ساءلها الله: «أين أنت؟» (تك
٩/٣). وعندما قتل قايين أخاه هايل ساءل الله القاتل: «أين أخوك؟» (تك
٩/٤). غير أنّ هذا التهديد ما كان حُكمًا وإدانة، بل رغبة في الخلاص.
فالإدانة هي بمثابة فعل غيريّة يدين الهوية المخطئة؛ وأمّا الخلاص - «وجه
الله» - فهو يُعيد إلى الهويّة أصلها.

وفي هذا المضمار أيضًا يمكننا المقارنة باليهوديّة والإسلام لإبراز ما
يميّز المسيحيّة عنهما. فهما قد حاربا حربًا شعواء تصوير الله وملائكته
وأنبيائه، متارمةً منهما لمحيطهما الوثنيّ. وأمّا المسيحيّة - ولا سيّما
المسيحيّة الشرقيّة - فهي تعتبر الإيقونات - التي تمثّل وجوهًا - استباقًا
لرؤية الله في الأبديّة. وإنّما عملة هذه الوجوه هي وجه الابن الذي يجسّد
الله الأبديّ: «هو صورة الله غير المرئي» (قول ١/١٥).

السّرّ المسيحاويّ (Mystère Christique).

نلمس هنا ذروة الهوية/الغيريّة المبيّنة على السّرّ المسيحاويّ، أي
سّرّ العلاقة الحميمة بين الله والإنسان، يسمّيه الفلاسفة «المفارقة»،
ويصفها بولس بـ«اليثار» و«الحماقة» (راجع ١ قور ١٧/١-٤/٣).

فهذه العلاقة أمرٌ ممكن بفضل تجسّد الله، حيث يصبح الله إنسانًا (يو

١٤/١)، ويُصبح مشابهًا للإنسان (قل ٦/٢). فلم يقتصر الوضع الإلهي والإنساني على أنّ الإنسان هو على صورة الله كمثاله، بل أصبح الله هو على صورة الإنسان. وإنّ ذلك انقلابٌ جدليّ بتمام معنى العبارة: فإن أصبحت غيرية الله - بفعل الخلق - وضعًا دمجًا باطنيًا عميقًا ملازمًا له، فقد أصبحت له - بفعل تجسّده - هويةً جديدةً، إن صحّ هذا التعبير الذي، إن عبّر عن شيء، فعن جدية فعل التجسّد. وقد سبق أن عبّر هيلاريوس الهوتايوي في القرن الرابع عن هذه الحقيقة خير تعبير لاهوتيّ إذ قال إنّ التجسّد لا ينحصر في أنّه *incorporatio* - أي دخول الله في جسم البشرية دخول الغريب في جماعة غريبة عنه - بل هو *concorporatio* - أي دمج الله البشرية في شخصه فأصبحت جسده - وعبّر إيريناوس في القرن الثاني عن الحقيقة عينها بكلامه على «تعود» (*accoutumance*) كلمة الله المتجسّد للبشرية.

وبلغ هذا «الدمج» وهذا «التعود» ذروتها في سرّ «البار المضطهد»: «رجل الأوجاع» و«أليف العذاب» (راجع أناشيد «عبد يهوه المتألّم» في أشعيا)، وهي آلام البشرية بأسرها على مرّ الأجيال إلى انقضاء الدهر. حتّى إنّه أصبح «خطيئة» (٢ قور ٥/٢١) وتطابق مع جميع الخطاة، ومات مثلهم أبشع ميتة، موت الصليب، وقد نبذ البشر الذين هم على صورته وهو على صورتهم: «جاء إلى بيته، فما قبله أهل بيته» (يو ١١/١).

وأحدثت قيامته انقلابًا جدليًا جديدًا، فهوية يسوع الإنسانية الإلّهية اكتسبت بُعدًا جديدًا هو غيرية الله المتسامي على الزمان والمكان، فأصبح سيّد الزمان والمكان، من دون أن يفقد هويته الإنسانية، فلم يُعدّ شخصًا آخر، بل أصبح شخصًا مختلفًا: «جسدًا روحانيًا»، «جسد مجد» و«قدرة»، «من السماء»، «أبدليًا» (راجع ١ قور ١٥/٣٥ ت). وعليه، فقد أضحي حضوره للبشر زمانيًا ومكانيًا حضورًا مختلفًا: فتراعى لتلاميذه والأبواب مغلقة (يو ١٩/٢٠)؛ وفي سرّ الإفخارستيا يحضر في العالم بأجمعه؛ ويكلمته، كلمة الحياة، يخاطب كلّ إنسان؛ ويتطابق والبشر، ولا سيّما الفقراء والمعوزين (متى ٢٥/٤٠ ر ٤٥) والصغار (متى ١٨/٥) والرسل (لو

١٦/١٠)...؛ فهو سيّد الزمان حقيقةً. إضافةً إلى أنه حاضر لجميع البشر في تاريخهم حتى نهاية الدهر (متى ٢٨/٢٠) عندما يفضُّ الأختام السبعة (رؤ ٦-٩). فيعمل في البشر بروحه القدّوس الذي يدفعهم إلى صنْع تاريخهم البشريّ لتحقيق ملكوت الأب على وجه الأرض.

ومن خلال كلّ ذلك، تصبح هويّة يسوع المسيح وغيرته الجديدتين أمرًا واحدًا: فهو يُظهر ملء الظهور ألوهيته المحجّبة بموجب «إفراغه» البشريّ (فل ٧/٢)، وإن ظهرت في أثناء اعتماده وعلى جبل التجليّ. كما أنّه يُظهر ملء الظهور إنسانيّه إذ لا يعود يحصر نفسه في جسده الأرضيّ الخاصّ، بل يصيغ حضورًا شاملًا للبشر وفيهم. ويقصير العبارة، فهو إله كامل في الإنسان، وإنسان كامل في الإله.

وهذا الوضع يجعل البشريّة تكتسب هي الأخرى هويّة جديدة، فهي تضحى «مصنوعًا للقيامة»، بحسب تعبير ديمتريوس ستانسلانوس اللاهوتيّ المعاصر من رومانيا. وإنّ الشخص، إذ يفتح للروح القدس «قلبه» - روحه، يتلقّى نوره ليشارك فيه «جسده» المدعوّ هو أيضًا إلى القيامة، كما يقول مقاريوس المتحلّ في القرن الرابع.

وأما الصعود، فإنّه يُظهر العلاقة بالثالوث: فالبشريّة تدخل في قلب الثالوث، في شخص الابن المتّجدّد: «حياتنا محتجّة في الله مع المسيح» (قول ٣/٣). فالصعود يصبح صعود الإنسان إلى الله، فيقول اللاهوتيّ الروسيّ المعاصر بيريغوكوفسكي إنّ الإنسان في قلب الله. ففيريّة الإنسان - كما تصدّها الله عندما خلقه - أضحت في قلب هويّة الله، وذلك بفضل صعود الإله - الإنسان. فالذي كان «في حضن الأب» (يو ١/١٨)، إليه «يمضي» (يو ١٣/٣)، ولكنّه يُدخّل معه البشر الذين يكتبون هويّة جديدة، هويّة أنطولوجيّة يصفها بولس بوصفه «الإنسان الجديد» (أف ٤/٢٤)، وإن تحقّق ذلك «بالرجاء» فالإنسان الجديد هذا، والهويّة الجديدة هذه، جعلت بولس يهتف: «ما أنا أحيًا بعد ذلك، بل المسيح يحيًا فيّ» (غل ١٩/٢). وفي سياق ذلك، يتلقّى البشر رسالة إشراك «الخليقة

جمعاء» في هذه الهوية الجديدة، هوية «حرية أبناء الله ومجدهم» (روم ٨/١٨ ت).

وبالتالي، فإنَّ البشر مدعوون إلى أن يكونوا «على مثال صورة ابن الله، ليكون هذا بكرًا لإخوة كثيرين» (روم ٨/٢٩)، وإلى أن يتحقَّق في ما بينهم «شعورُ المسيح يسوع» (فل ٥/٢ ت)، أو - بحسب تعبير أثناسيوس - أن يدعوا الروح القدس «يجعلهم الكلمة». ففي نهاية المطاف، إنَّ «صورة الله» التي كانت منذ البدء، تكمل في «صورة الابن» التي تصبح دعوة البشر القُصوى، حيث إنَّ بكر الإخوة الكثيرين يمنح إخوته غيرية جديدة، أي علاقة جديدة تجمع الإنسان بأخيه الإنسان في الأخ البكر، كما سنراه لاحقًا.

الله بين التسامي والكُمون (Transcendence/Immanence) :

. ألا يهدد كلامنا هذا تسامي الله وهويته؟ بلى، إن تبينا المتطق الأرسطوطاليّ وهو تصوّر الله العلة الأولى الذي لا يتعامل مع الخليقة ليحافظ على تساميه المطلق وهويته المنفصلة عن عالم البشر. وكذلك الأمر في الإيمان بالله الواحد الوحيد المتسامي المثلث التقديس (إش ٦/٣) والأكبر:

وأما الإيمان بالأفانيم الثلاثة، ياله المحبة (١ يو ٤/٨) الذي يُحبُّ العالم (يو ٣/١٦)، فيستأثر بأنَّ الله لا يفقد شيئًا من تساميه المطلق وهويته الجذرية بسبب غيريته الظاهرة في التجسّد والقيامة والصعود. وبالفعل، فإنَّ كان «الحبُّ الأعظم» يكمن في بذل الذات من أجل الأحباء (يو ١٥/١٣)، فهو يتجلّى في فقدان الهوية في سبيل الغيرية، وفي بذل الذات في سبيل الآخر وفي الآخر، في فعل «إفراخ» كلّي (فل ٧/٢).

ويؤكِّد لنا ذلك صحّة حلس أوغسطينس في عبارته الشهيرة: «الله اسمي ممّا في من سموّ، وأشدّ حميميّة ممّا هو حميم في». فيقرُّ هذا القول بتسامي الله المطلق وهو هويته، مقرونًا بكُمونه المطلق وهو غيريته التي تتحقّق في فعل الخلق وفي الاختيار والمهد وفي تجسّده وخلاصه وإدخاله

البشرية في قلب الثالوث.

الإنسان بين نزعه الاستقلالية وخضوعه لله

أما الإنسان، أفلا يفقد استقلاليته بسبب خضوعه لله بموجب الخلق والعهد والتجسد والقيامة والصعود؟ أفلا يفقد هكذا هويته في غيرته، إذ يصبح مُنتزعا بعيدا عن ذاته؟

إن الإنسان مُهدد بالفعل في مثل النظرة الأرسطوطالية حيث «الإنسان صانع ذاته» (auto-anthropos)، أو البروميثية (نسبة إلى Prométhée) حيث الإنسان يخطف حرته من الآلهة، أو الترجسية (نسبة إلى Narcisse) حيث الإنسان يتوهم أنه مصدر بهائه فيُعجب بذاته. . . هذا ما وصفه أوغسطينس في المدينة الأرضية بـ «إثبات الذات بالذات» حتى «احتقوا الله»، وقد ناشد به الإلحاد. وهذا ما عير عنه مكسيمس المُعترف أيضا وقد اعتبر أن خطيئة الإنسان هي «اغتناب ما هو لله (أي شجرة الحياة) بدون الله وقبل الله، لا بحسب الله»؛ وإذا أبعد الله الإنسان عن شجرة الحياة، فما كان دافعه الغيرة - كما أوحى به الحية - بل «ليجتنب (الله) أن يتأله (الإنسان) في حالة من الكذب» و«من عبادة ذاته». وفي نهاية الأمر، فإن نزعة الإنسان الاستقلالية هي عبارة عن رفض الهوية للغيرية، فتصبح الهوية منغلقة على ذاتها. وتطبيقا لذلك، ثمة قول سارتر المشهور: «جهنم هو الآخرون»، واعتباره أن «نظرة» الآخر تجعل المنظور إليه شيئا وموضوعا فتفقد ذاته وحرته، ونضيف من جهتنا أنها تُفقد هويته.

وبعبارة أخرى، أفليست النزعة الاستقلالية الراضية الخضوع لله والمُدعية «موت الله» (نيشه)، توصل حتما إلى هدم الإنسان بنفسه، وتضمّن حتما «موت الإنسان» (التيار البنيائيني)؟ أفليست الهوية من دون الغيرية طريقا يؤدي حتما إلى الموت؟ إن هذه التساؤلات تتبع من الغيرية في الله ذاته كما رأيناها: فالله الواحد ليس وحيدا، بل هو شركة ثلاث غيريات.

الإنسان ونزعته إلى اغتصاب تأله ذاته بذاته

أوحى الحية لحواء عدم الخضوع لله: «... تصيران مثل الآلهة تعرفان الخير والشر» (تك ٣/٥)، فحرّفت الحية وضع الإنسان الأصلي «كمثال» الله ورغب الإنسان بالتالي في أن يكون «مثل» الله، لا «كمثاله». لقد رفض بالفعل هويته كمخلوق ووضعه البشري المحدود النهائي، وأنكر المسافة التي بينه وبين خالقه، وتسامى الله عليه، واغتصب غيرته الإلهية عوضاً عن أن يقبلها منه. وقد عبّر إيريناوس عن ذلك خير تعبير إذ قال: «كيف تكون إلهًا، ولم تصبح بعد إنسانًا؟ كيف تكون كاملًا، وما كدت أن تُخلقت؟». فلم يدرك الإنسان أن ليس بمقدوره أن يقترب من «شجرة الحياة» إلا بعد زمن طويل من النضج والنمو، فقبل ذلك - في لاوعيه الطفولي - لأحرقه وهجّ الله. ولذا «أوقفه» (الله) في عصيانه إذ أدخل الموت، (...). وحدّد له نهاية هي انحلال جسده في بطن الأرض، حتى إنّ الإنسان، وقد «مات للخطية» (روم ٦/٢)، يشرع يومًا في أن «يجبا لله».

ومع ذلك، فلم تتوقّف المسيحية عند هذا الحدّ من العلاقة البرانية بين الله والإنسانية، ولكتها، إذ أدخلت عنصر الجوانية، فقد أدخلت بالفعل العلاقة الجدلية بين البرانية/الجوانية. وتحترم هذه العلاقة هوية الإنسان/غيرته، بل وتعترف بهوية الله التي لا يغتصبها الإنسان بل يقبلها منه تعالى. هذا عينه ما عبّر عنه أوغسطينس في «مدينة الله» المبينة على «حبّ الله حتى احتقار الذات».

وقد عاش الابن المتجسّد ذلك إذ «لم يُعدّ مساواته لله غنيمَةً»، بل «أفرغ ذاته» من هذا الادّعاء، «أخذًا صورة العبد»، وذلك «حتى الموت على الصليب» (فل ٢/٦-١٠). فالابن المتجسّد، إذ أطاع مشيئة الآب، قد اعترف اعترافًا كاملًا بالهوية الإلهية وقد أصبحت له بمثابة غيرية. فهويته الإلهية «المُفرّقة» قد امتزجت بهويته البشرية الكاملة في أنّه أصبح «على صورة» البشر، «مثل» البشر. كانت هذه الهوية البشرية الدخيلة على

هويته الإلهية أمرًا ضروريًا ليهزم تجربة الإنسان في أن يكون «مثل الله». وأما رَفَعُهُ وتمجيدُ اسمه (قل ١١/٢-١٢)، فلم يكونا فعل اغتصاب، بل عطاء من الآب اقتبله منه من خلال طاعته له: «أوليتُ كلَّ سلطان» (متى ١٨/٢٨).

والإنسان مدعوٌ إلى أن يقتدي بالمسيح، فيعترف بهويته الله خالقًا واهبًا، وبهويته الإنسانية المخلوقة المنقولة. وفي صميم الاعتراف بالهوية المزدوجة، يكمن الاعتراف بالفيرية: فالإنسان يقتبل ذاته من آخر ويقتبل كلَّ شيء منه. وبدون ذلك، فالهوية البشرية تتجه حتمًا نحو الموت، وهذا هو معنى طرد الإنسان من الفردوس، أي انفصاله عن مصدر حياته وهو الله. فعلم اعتراف الإنسان بهويته الحقيقية كمخلوق هو بمثابة فقدان لهويته وقد توهم أنه احتفظ بهويته الله إذ عدها غنيمة له؛ كما أنه تجاهل أن الهوية الإلهية التي تخلفه هي هوية «مُفَرَّغَة» متجردة لا هوية مسيطرة متسلطة، هوية تليي رغبة الإنسان في أن يكون «كمثال» الله، لا «مثل» الله.

الإنسان وجهاده الروحي

إن أقرنا أن نعمة تطابقًا مبدئيًا بين رغبة الإنسان في الاستقلال وفي خضوعه لله، بين هويته البشرية وغيرته بالله وفي الله، فهذا لا يمنع أن نضع الإنسان يتضمّن جهادًا روحيًا، على مثال مصارعة يعقوب مع الله (تك ٣٢/٢٣-٣٣). ومما يسترعي الإعجاب من هذه المصارعة طوال ليلة كاملة، أن قوة الاثنين كانت تساوى أحيانًا، وهذا مثل آخر «للإفراغ» الإلهي. أضف إلى ذلك أن الله يكشف هويته هذه للإنسان من خلال المصارعة، كما أنه يكشف هوية الإنسان الجلييلة: «لا يكون اسمك يعقوب في ما بعد، بل إسرائيل، لأنك صارعت الله والناس وغلبت». فمصارعة الله - أي الجهاد الروحي - يسمح للإنسان بأن يكشف جانبًا من جوانب هوية الله لم يخطر بباله، ومن هويته البشرية لم يخطر هو الآخر بباله: فالإنسان يكشف أن الله ضعيف: «مثل في كل شيء»، ما عدا الخطيئة» (عب ٤/١٥)؛ كما أنه يكشف أنه إنسان قوي وقوته هذه عطية

من الله. فهذه الهوية لا تتكشف إلا في المواجهة بينهما، في المواجهة بين غيريتين.

ويصف لنا الإنجيل أيضًا أزمة في الغيرية، وذلك في حديث يسوع عن «خبز الحياة»، وهي أزمة علاقة بين يسوع وتلاميذه سمحت لهم بأن يعترفوا بهوته: «كلام الحياة الأبدية عندك» -- «أنت المسيح ابن الله الحي». فهكذا قد منحهم الفرصة لعمقوا علاقتهم به: «إلى من نذهب؟» -- «من أراد أن يتبعني...» (راجع يو ٦/٦٨، متى ١٦/١٣ و٢٤). فعلى مثال مصارعة يعقوب الله، إنَّ جهاد التلاميذ مع يسوع أضحى فرصة للتعلم في العلاقة به في شركة الحياة - أتباع المسيح - وفي شركة المصير - نكران الذات وحمل الصليب -. وعليه ينجلي هنا أيضًا جانب من جوانب الهوية/الغيرية، وهو من أعمق جوانب الوجودية، وهو ما يتعلّق بالحياة والموت.

ثالثًا: «الأنثروبولوجيا»، أي هوية/غيرية الإنسان

لقد اتضح لنا بعض العناصر الأنثروبولوجية من خلال جولتنا الثيولوجية والإيقونومية. فنبغي الآن، من منطلق ما سبق، التركيز على نظرة أنثروبولوجية وجودية للتعلم في ما توصلنا إليه آنفًا.

الهوية المبنية على الغيرية

عندما هتف آدم أمام حواء، وقد وهبها له الله: «هي عظم من عظمي، ولحم من لحمي. هذه تُسمى امرأة لأنها من امرئ أخذت» (تك ٢/٢٣)، فهو قد اعترف فعليًا بهوته الجنسية أمام المرأة بهويتها الجنسية؛ الأمر الذي يبيّن إلى أيّ حدّ تكشف الغيرية هوية الإنسان. فالوعي الذاتي يتحقّق بفضل الآخر المختلف عن الذات؛ فبين الذات والآخر مسافة واختلاف ضروريّان. ولقد عبّر سارتر عن هذا الوضع البشريّ بقوله: «الآخر وسيط بيني وبين ذاتي». كما قال المحاضر الروحانيّ المعاصر الأب مويس زنديل، مستعينًا بتعبير الشاعر الفرنسيّ ريمبو: «أنا هو

آخر».

وفي ضوء ذلك، يمكننا تقدير قوا، الله: «لا يحسن أن يكون الإنسان وحده. فلأصنعن له عوناً يُناسبه» (تك ١٨/٢). فإن هذا الآخر الذي يميّز بآته من عظمه ومن لحمه، وفي الوقت عينه مختلف عنه، إنّ هذا الآخر يسمح للذات بأن تعترف بآنها هوية أمام غيرية، وأنها فريدة من نوعها بقدر ما هي مرتبطة بغيرها. وترمز الشجرة المحرّمة إلى الآخر، كما أنّها تفرض على الذات احترام الآخر. ومما يُذكر أنّ لفظ «عون» يختصّ في العهد القديم بالله، فالله يُعيّن الإنسان؛ فجدير بالتقدير أنّ المرأة تشترك في هذه الصنعة الإلهية!

الانفتاح على الآخر

ويصبح آدم وحوّاء المتحدّين الواحد بالآخر قطبيّ هوية واحدة يخرج منها قطب غيرية جديد وهو قايين وهايل. وعليه، فكلّ شخص وكلّ زوج وكلّ جماعة مدعوة إلى الانفتاح على الآخر المختلف. ويمكن قراءة أمر الله لإبراهيم في ضوء ذلك: «إنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك» (تك ١٢/١)، أي: أترك ما صنع هويتك سنين طويلة واتجه نحو قطب جديد من الغيرية. ولولا ذلك، لأصبحت الهوية انغلاقاً وعزلة، ونرجسية واكتفاء ذاتياً، على نقیض الله وهو شركة بين ثلاثة أقانيم، وقد خلقت الإنسان «على صورته كمثاله»، أي هو الآخر في شركة مع الآخرين.

النزعة إلى العنف

إلا أنّ الغيرية قد تهلّد الهوية منذ أن دخلت الخطيئة العالم. وقد يأخذ هذا التهديد وجه العنف، مثلما حدث عندما قتل قايين أخاه هايل بسبب الغيرة. فقد أراد قايين أن يكون «مثل» أخيه في تقديم قربانه لله، فكرّر بالتالي مأساة آدم وحوّاء اللذين أرادا أن يكونا «مثل» الله، في حين أنّ الهوية تفترض شرط الاختلاف لا التطابق. فإنّ رغبة الإنسان في أن يكون «مثل» أخيه ولا مختلفاً عنه، وإنّ غيرته من أخيه... تؤدّيان به إلى

ارتكاب أفعال العنف ليكون أعظم منه. ومن هنا نشأت الحروب والقتل، والمنافسات والكذب... ولقد أدرك سارتر ذلك، فقال بطل من أبطال إحدى مسرحياته لامرأة: «إننا نتشابه كثيرًا، فلا يمكننا أن نتحاب». فالحب يفترض الاختلاف، وإلا وجد المرء هويته في الآخر فأحب في نهاية الأمر ذاته في الآخر ولم يحب الآخر من أجل الآخر؛ وهذه هي الأناية والترجيبة.

والكتاب المقدس لا يتحدث عن «الشيء» بل عن «القريب»، وهو في آن واحد قريب وبعيد «مقدار رمية حجر» (لو ٢٢/٤١). فبدون هذه المسافة، يسيطر على العلاقات البشرية تلاشي الهوية في الغيرية، أو تَقْمُصُها، أو سيطرتها... وتموت الهوية موتًا عنيقًا. وفي الإنجيل مشهد بطرس ويوحنا مع يسوع القائم: فلما أراد بطرس أن يقارن بين مصيره ومصير التلميذ الذي كان يسوع يحبه، أجابه يسوع للتو: «ما لك وله؟ أما أنت فاتبعني» (يو ٢١/٢٠-٢٢). فلكل واحد دعوته الفريدة ومصيره الخاص وعلاقته الشخصية بالمسيح، وذلك بدون وجه مقارنة و شبه بينهما. وخلاصة القول إنَّ الشبه يفضي بالهوية إلى الموت، وأما المسافة فإلى العلاقة بالحياة.

وعندما أوصى يسوع بوصية المحبة: «أحبوا بعضكم بعضًا حبي لكم»، فهو لم يوصي قط بمحبة تكرر أو تقلد أو تشابه، بل يؤكد مصدر المحبة الأخوية، وهو شخص يسوع نفسه الذي أحب حتى بذل حياته في سبيل أحبائه (يو ١٥/١٢-١٣). وبالمثل، فعندما صلى إلى الأب من أجل أن يكون تلاميذه واحدًا، فهو لم يعرض عليهم نموذج وحدة، ولا حتى نموذج الشخصية، بل صلى إلى الأب، حتى تتبع الوحدة الأخوية من الثالث نفسه: «ليكونوا واحدًا من وحدتنا» (يو ١٧/١١).

وأما منطق الخطيئة، فهو على نقيض ذلك تمامًا. فلأنَّ الإنسان انفصل عن الله مصدره، أصبح عنيقًا مع أخيه الإنسان، وقتل قاين هايل. فإنما الله المصدر وحدة هو الذي يضمن سلامة علاقة الأخ/الأخ،

الزوج/ الزوجة، الأب/ الابن...، كما أراده تعالى لأولاده البشر منذ البدء. وأما الحضارة بدون الله، فهي حضارة عنف بشريّ. فبدون الله تنتصر حضارة «الإنسان ذنب للإنسان» (هؤنر)، و«العنف» (هينغل)، و«صراع الطبقات» (ماركس)، و«إرادة القوّة» (نيتشه)، و«جهنّم هو الآخرون» (سارتر)... وإن أعلن نيتشه «موت الله»، فقد آل ذلك إلى «موت الإنسان» (الفلسفة البيئيّة). ومما يلفت النظر أنّ أعنف الحروب وأشنعها هي الحروب الدينيّة باسم الله. فجميع هذه الانحرافات وغيرها من الانحرافات مصدرها عدم الاعتراف بالآخر كآخر، أي نُكران الغيريّة أو تجاهلها، لتسيطر الهويّة، سيطرة الأقوى الذي يسحق الأضعف أو حتى يُزيله.

إحترام الاختلاف

إلا أنّ كلّ شخص هو مركز لا يُتَهَك، فريد من نوعه؛ هذا هو معنى الهويّة بالتعبير الشخصانيّ. ومع ذلك، فكلّ شخص قد يُصبح في أيّة لحظة دائرة تضمّ الآخر وتحويه، ولا تحترم هويته، فتجمله عبدًا لها، لا شخصًا حرًّا، أي شخصًا في علاقة مع الآخرين وشخصًا مستقلًّا في آن.

وما يقال في الأشخاص يقال في الجماعات والطبقات، والإثنيات والأمم، والأديان والطوائف... فلجميع هذه الفئات حقّها في الاختلاف، وهو حقّ مقدّس نستحقّ أن نوضع لها «شرعة حقوق الشعوب»، على مثال «شرعة حقوق الإنسان»، ولا سيّما في حضارة يثل حضارتنا المعاصرة، وهي ثقافة العولمة التي تميل إلى النمّودج الأحاديّ الذي يفرضه الأقوى على الآخرين، من دون أن يحترم الاختلافات المقدّسة ولا سيّما اختلافات من هو أضعف منه. فالنمّودج المسيطر حاليًّا في العولمة يشبه نمّودج أوطيخا الذي ادّعى - في القرن الخامس - أنّ ألوهيّة يسوع المسيح قد امتصّت إنسانيّته، وأنّ إنسانيّته تلاشت في ألوهيته. فالحكم هو حكم الأقوى، - في هذا المنطق - سواء أكانت الألوهيّة، أم الفئة المسيطرة، في حين أنّ إحترام الاختلافات يذكّر بأنّ

الآخر جزء لا يتجزأ من الذات، وبأنّ الغيرية تكوّن الهوية. فلا يمكن إذاً تصوّر الواحدة من دون الأخرى، بل ينبغي تصوّرهما معاً في حضارة تحترم الآخر المختلف عن الذات.

وتسم الشرق الأدنى بالتمعدنية في مظاهرها الإيجابية والسلبية، فتواجه باستمرار الهوية والغيرية. فالآخر قد يكون فرصة سانحة للانفتاح عليه والحوار معه والإثراء منه والتعايش معه... وقد يكون، على عكس ذلك، مصدر تجاهله أو تخوّف منه أو رفض له...، لأنّه قد يهدّد الهوية إذ يزعزع ثوابتها المزيّنة وانغلاقها المتعنّت وندرجسيّتها الملتبسة... فكلُّ هوية شرقية هي في مواجهة مستديمة بغيرية شرقية أخرى. فقد تخشى الهوية الضعيفة العالم المعاصر أو ديانة الآخر أو طائفته أو ثقافته أو حزيه...، وقد تواجهها الهوية القويّة بشجاعة وإقدام. فكلُّ هوية راسخة لا تخشى الغيرية؛ والهوية الضعيفة وحدها تخشى أن تزعزعها الغيرية. فالمواجهة إذاً فرصة مزدوجة المعنى: فإمّا من أجل البنيان والنمو، وإمّا من أجل التنصّل من المسؤولية والتلاشي.

رثنا الكنيسة

في محيط الشرق الأدنى، تجدر مقارنة هوية الكنائس الشرقية والكنيسة الغربية، على الصعيد اللاهوتي والكنسي والروحي...، بقدر ما هما تكوّنان «رثي الكنيسة»، بحسب عبارة الأب توماس شيدلوك اليسوعي، وقد استعان بها وعمّم استعمالها البابا يوحنا بولس الثاني.

• فهوية المسيحية الغربية قد تكوّنت بفضل الشرق، بقدر ما جذور المسيحية هي شرقية: الكتاب المقدّس، العقائد، الحياة الرهبانية... ويمكننا الإقرار بلا تحفّظ بأنّ الهوية المسيحية الغربية قد نشأت ونمت بفضل الشرق المسيحيّ الذي يمثّل هكذا لها قطب الغيرية.

وثمة قطب آخر للغيرية كوّن هوية الغرب، ألا وهو حوار مع الحضارة المحيطة به. فقد احتكّت عموماً أحاديثه اللاهوتية والروحية والكنسية... بالثقافة المحيطة به، وتتطوّر مختلف مجتمعاته، وبأسس

حضاراته المتنوعة...، وذلك على مرّ القرون والأجيال.

وهناك قطب ثالث للغيرية، وهو جامعية الغرب الكنسية التي سمحت له - إلى حدّ كبير، مقارنةً بالكنايس الشرقية - بالآلّا ينغلق على بلد واحد أو سياسة واحدة أو نظرة أحادية...، بل أن يأخذ بعين الاعتبار تعددية الكنائس التي تكوّنه، وإن ظهر اليوم تيارٌ ينادي باحترام أكبر للتنوع والاختلاف، ممّا يُفضي بالكنيسة إلى إراثها من الداخل. وفي هذا الصدد، فإنّ ظاهرة انتشار الإرساليات في القرنين الماضيين ساهم مساهمة فعالة في الروح الجامعية في ما يُعرف الآن بروح الانشقاف، وإن طال زمن ظهور ثمر الانشقاف هذا، وبالرغم من انتقادات داخلية وخارجية شكّت في هذا الانشقاف.

وأخيرًا، فإنّ ظهور الإصلاح في مستهلّ نهضة أوروبا في القرن السادس عشر قد فتح الأفق على غيرية جديدة أثرت الهوية الغربية نفسها من داخلها، بعد فترة من الرفض والتبذ.

إنّ هذه الأقطاب الأربعة - ويمكننا تعداد غيرها من الأقطاب - قد ساهمت على مرّ الأجيال في تفاعل الهوية والغيرية الغربيين. فكلمًا تنوعت الغيرية وكثرت أقطابها، اغتنت الهوية، وإن سبب ذلك الاغتناء جدليًا أزمت وردّات فعل تهدّد الهوية في مرحلة معينة من عملية التفاعل. فالهوية القوية الثابتة تعرف كيف تتفاعل مع الغيرية المختلفة، وإن كانت أحيانًا غيرية مهدّدة بل طاغية؛ وأما الهوية الواهنة فهي لا تعرف كيف تواجه خطر الغيرية المهذّدة، فترفضها وتبذها.

✽ وماذا عن هوية الشرق المسيحيّ؟ لقد ارتسمت ملامحها منذ القرون المسيحية الأولى بفضل الكتاب المقدّس، والاحتكاك بالحضارات اليهودية واليونانية والرومانية والشرقية، وانعقاد المجامع المسكونية... غير أنّ أحداثًا تاريخية لاحقة قد تدخلت ولم تساعد الشرق على التفاعل مع قطب الغيرية، وذلك على نقيض ما حدث في الغرب، نذكر بعضها: فأول انشقاق كنسيّ في خلقيدونيا في السنة ٤٥١ قد حجّر غيرية

المجامع المسكونية في هويات كنسية مستقلة ومكتفية بذاتها، وذلك في معظم الكنائس ولا سيما في كنائس الإسكندرية (وإثيوبيا) وأنطاكية وأرمينيا. ففي هذا الجو من الانشقاق الذي توسع نطاقه في القرن الحادي عشر بسبب انفصال الكنيسة البيزنطية والرومانية، سيطر تدريجاً قطب الهوية على قطب الغيرية.

ثم إن ظهور الإسلام في المنطقة قد دعم قطب الهوية: فقد هدّد الإسلام الفاتح هوية الكنائس الشرقية، ممّا جعلها تسعى إلى الحفاظ على إيمانها المسيحيّ أمام غيرة الإسلام المهدّدة، على حساب نموّ التعابير الإيمانية التابعة من إيمان حيّ مثلما كان الأمر في قرون المجامع المسكونية الأولى. نستني من ذلك بعض الشيء العصور الوسطى التي عرفت نوعاً من التفاعل مع غيرة الإسلام - وإن كان دفاعياً أكثر منه مُبدعاً - وذلك بفضل المفكرين المسيحيين الناطقين باللغة العربية. وبوجه عام، يمكن التأكيد أنّ قطب الهوية قد تدعم، بيد أنّ قطب الغيرية قد اضمحلّ حتى كاد أن يتلاشى.

وثمة عنصر ثالث يعرف هوية الكنائس الشرقية، وهو تنوعها، على خلاف الكنيسة الغربية الواحدة. ويمثّل ذلك التنوع في حدّ ذاته غنى في الغيرية. ومع ذلك، فبسبب الطرفين التاريخيين السابقين، إضافة إلى عدم وجود راع يخدم وحدتها مثل الكنيسة الغربية، أدى فعلاً هذا التنوع إلى انعزال كلّ كنيسة منها انعزالاً كنسياً، وحلّ محلّ المحرّ العلاقات الكنسية المتبادلة ارتباطاً حميم بالوطن كاد ينحصر فيه. فأصبحت هذه الكنائس كنائس وطنية تنبئ ثقافة الوطن وقضاياه، وتسيطر عليها السلطات المدنية، وكلّ ذلك على حساب الوحدة في ما بين مختلف الكنائس. وبعبارة أخرى، فقد سادت الهوية الوطنية على حساب الغيرية الكنسية.

وترمّخ هذا الوضع حتى إنّ تبشير الأمم السلاطية كان في حدّ ذاته قطباً جديداً للغيرية بالنسبة إلى الكنيسة الأمّ البيزنطية القسطنطينية، بقدر ما فتح هذا التبشير أفقاً جديداً لغيرية كنسية وثقافية مختلفة. إلا أنّ الهوية

الأصلية التي كانت تتمتع بها هذه الكنيسة المبشرة سادت على الانفتاح على غيرية مختلفة.

وإنَّ حدثًا سياسيًا مثلَّ فرصة جديدة للتفاعل بين هذه الهوية الأصلية وغيرية جديدة، أعني الشيوعية التي أدت إلى هجرة العديد من المفكرين الروس إلى أوروبا الغربية في أثناء القرن العشرين. فحدث تفاعل لاهوتي وروحي وكنسي وثقافي مثمر للغاية لكلا الطرفين. فالغرب المسيحي مثل لهم قطب الغربية؛ كما أنَّ الشرق المسيحي مثل للغرب قطبًا جديدًا من الغربية زامنه اكتشاف اللاهوت الآبائي ولا سيما الآباء الشرقيين، وانتقاد المجمع الفاتيكاني الثاني الذي عرّف الشرقيين إلى الغربيين. والحق يقال إنَّ هذا التفاعل يفتح مجالًا جديدًا للغيرية لرثي الكنيسة، وإن كانت العلاقات المسكونية تعاني اليوم نوعًا من الفتور، أو قُل من المنافسة والمواجهة والحذر بدلًا من الحوار الحقيقي.

✦ وماذا عن الكنائس الشرقية الكاثوليكية؟ إنَّ هويتها تعتمد أساسًا على غيريتها، بمعنى أنها نشأت لتكون أصلًا «جسرًا» بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الأرثوذكسية. ولكنَّ الوضع يختلف اليوم عما كان عند نشأتها، فهناك أزمة في هذه الهوية، هوية «الجسر». فلم تستطع الكنائس الكاثوليكية الشرقية أن تحقّق هذا الهدف، بل أصبح وجودها سببًا لتوتر وأزمة، ونزاع ومواجهة بين الشرق والغرب.

وعليه، فالقضية الحقيقية تكمن في أن تكشف وتجدد الكنائس الشرقية الكاثوليكية هوية جديدة مبنية على الغربية عينها بين الشرق والغرب. ومن هنا التساؤل: أليس من الغريب أن تبحث كنيسة ما عن هوية «جديدة»؟ أمن السهل تغيير الهوية؟ الحقيقة أنَّ ذلك أمر ممكن بقدر ما «الهوية ليست بمعطى ثابت، بل هي تشيّد وتتبدّل طوال العمر» (أمين معلوف). فهذه الكنائس مدعوة إلى تحقيق هذا التبدّل، أي - بتعايرنا اللاهوتية - إلى التجنّد والانتشاف والاندماج في محيطها الحياتي، بحسب أوضاعها الجديدة.

وعلاوة على ذلك، فبقدر ما «الأخر هو وسيط بين الأنا والذات» (سازتر)، فالكنائس الكاثوليكية من جهة والكنائس الأرثوذكسية من جهة أخرى تقوم بدور الوسيط في بحث الكنائس الشرقية الكاثوليكية عن هويتها الجديدة والمجددة، عن «هوية حية» مبنية على «النمو» المستمر (جان غيثون، عن ثيومن). فينبغي مساعدتها على اكتشاف هويتها هذه والنمو فيها ليستنى لها أن تقوم بخدمة الغيرية. فإزاء الكنائس الأرثوذكسية، قد تمثل الكنائس الشرقية الكاثوليكية قطب الانفتاح على جامعية الكنيسة وعلى الحوار مع العالم المعاصر؛ وإزاء الكنيسة الكاثوليكية، فقد تمثل قطب الانشقاف في المحيط الذي تعيش فيه الكنيسة وتخدمه.

❖ وفي نهاية مطافنا في وضع «رستي الكنيسة» الراهن، نبغي استعراض عنصرين يستحقان تحليلاً متعمقاً، نكفي هنا بإثارتيهما:

كثيراً ما يتصور بعضهم أن الهوية ملازمة للماضي ومرادفة للأصالة ومبنية على الثبات، وأما الغيرية فهي عنصر دخيل يناهض الماضي والتقليد وينافي الأصالة ويهدد الثبات. الحق يقال إن مثل هذه النظرة مخطئة ومتحجرة، لأن الهوية حية دينامية تفتني من خلال الظروف ولا سيما الظروف الغيرية، كما سبق أن رأينا مراراً. فلا تنحصر الهوية في الماضي والوراء، بل هي تتأقلم والحاضر، وتتطلع إلى المستقبل والأمام؛ والآ أصبحت جثة هامدة.

ومن هذا المنطلق، تمثل الغيرية المُحرِّك الدينامي الذي يسمح للهوية بأن تتجدد وتنمو. وفي الشرق الأدنى، لا يقتصر وضعه الشامل على الكنائس - فهذا أضحى أفق - بل يدمج أيضاً الإسلام وسائر الأديان والعالم المعاصر وإنجازاته، والقضايا الإنسانية برمتها... فكلها عناصر تمثل قطب الغيرية الذي يساعد على إحياء الهوية وإثرائها. لتفجر إذا كنائسنا في سبيل خدمة مجتمعاتنا، أمانةً منها لروح الإنجيل.

الخاتمة

إن مقدار نجاح حياة شخص أو جماعة إنسانية يُقاس بقدر دمج قطبي الهوية والغيرية. والهوية هي مركز الشخص أو الجماعة الذي لا يُتَهَك ولا يُسَلَب ولا يُمَسّ، والغيرية هي من مقومات الهوية بقدر ما الهوية ليست منبع ذاتها بل تقبل ذاتها من الآخر المطلق - وهو الله - ومن الآخرين - أي البشر. فعمل الاقتبال هذا يؤسس هوية الشخص أو الجماعة ويتيح الاعتراف بالاختلاف عن الآخر والآخرين. إن دمج هاتين الحقيقتين هو معيار نضج الشخصية الفردية أو الجماعية.

ونختم حديثنا اللاهوتي بقول أوغسطينس: «لأعرفتك، كي أعرف ذاتي». فإن الآخر - كما يقصده أوغسطينس - والآخرين - كما نضيفه من جهتنا - منبع الذات في فرادتها الجذرية. وأما الذات، فهي تحقق هويتها إذ تتقبلها من الآخر والآخرين؛ كما أنها تحقق غيريتها إذ تعترف بالآخر وبالآخرين مختلفين عنها. الاقتبال من الآخر والآخرين وقبولهم، والاعتراف بالذات صادرة عن الآخر والآخرين والاعتراف بهم، هما مقولتان لاهوتيتان وأنثروبولوجيتان يتضمّنهما مفهوم الهوية/الغيرية. وفي نهاية الأمر، «إن كل شيء واحد، ولكن الواحد هو في الآخر، على مثال الأقاليم الثلاثة» (بشكال).